مع أم المؤمنين خديجة رضي اللّه عنها (2/5)

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 31 مايو 2018

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

وما زلنا في بيت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي اللّه عنها، وما زلنا نتحدث عن تلك الحقبة التي عاشها صلى اللّه عليه وسلم وكيف كانت حياته الأسرية آنذاك.

ونكاد نجزم إن هذا البيت – بيت أم المؤمنين رضي اللّه عنها – لم يكن يخلوا من الصخب واللعب والصراخ وشقاوة الأطفال ومرحهم وضحكاتهم، ونكاد نجزم كذلك إن هذا البيت لم يكن يخلوا من بعض المشاكل وبعض المنغصات أيضًا، ولكن مع هذا الزوج والأب صلى اللّه عليه وسلم الحنون العظيم التي شهدت له الملائكة والجن والبشر أجمعين ومع هذه الزوجة والأم الطاهرة سيدة نساء قريش رضي اللّه عنها استطاعا أن يتجاوزا كل تلك المنغصات مهما كانت، لذلك لم تتمكن كتب التاريخ والسير أن تذكر أي نوع من المشاكل التي يمكن أن تكدر عش الزوجية مهما كانت كبيرة أو صغيرة، على الرغم من أن الفترة الزمنية التي عاشاها معًا بلغت حوالي خمسة وعشرين سنة بحلوها ومرها، فهل نعتقد أنه لم توجد لحظة من المشاكل أو المنغصات ؟ ولكنها روعة القائد

العظيم صلى اللّه عليه وسلم وكذلك ذكاء ماسك دفة السفينة رضي اللّه عنها. وسوف نجد لاحقًا كيف استطاع صلى اللّه عليه وسلم أن يدير بيته، أو بالأحرى بيوته كلها، وكيف استطاع أن يدير ويحل المشكلات التي كانت تدور في البيت النبوي الشريف، كان يديرها بالحوار والحكمة والهدوء وطول البال وسعة النفس، لذلك نتوقع أنه كان كذلك خلال الأعوام الخمسة والعشرون، فقد أدار هذا البيت الصغير بكل هدوء وتواضع وبكل حب واحترام لأهل البيت وصاحبة البيت رضي اللّه عنها.

استمر صلى اللّه عليه وسلم بالإتجار بأموال خديجة رضي اللّه عنها وجلب الرزق فلم ينقطع عن العمل يومًا، وكان هذا دوره خارج عش الزوجية، وفي المنزل كان صلى اللّه عليه وسلم كالرجل الطبيعي يداعب ويمازح زوجته والأطفال ومن يعيش معه في المنزل، فلم يكن فظًا يومًا ما ولم يدخل المنزل متجهمًا ومتكبرًا، كان محبًا لزوجته مقدرًا لها كل عطاءها، وفي كتاب الإصابة لابن حجر العسقلاني يروي إنه بعد أن توفيت خديجة رضي اللّه عنها أتت خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ امْرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَرَاكَ قَدْ دَخَلَتْكَ خَلَّةٌ لِفَقْدِ خَدِيجَةَ، فَقَالَ: "أَجَلْ أُمُّ الْعِيَالِ، وَرَبَّةُ الْبَيْتِ"، وأنظر إلى كلمة "وربة البيت" أليس ذلك دليل على حسن تدبيرها للمنزل الذي كانت هي سيدته رضي اللّه عنها ؟

وفي فتح الباري عن أنس أن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان عند أبي طالب، فاستأذنه أن يتوجه إلى خديجة فأذن له، وبعث بعده جارية له يقال لها "نبعة" فقال لها: انظري ما تقول له خديجة ؟ قالت نبعة: فرأيت عجبًا، ما هو إلا أن سمعت به خديجة فخرجت إلى الباب فأخذت بيده فضمتها إلى صدرها ونحرها ثم قالت: بأبي وأمي، واللّه ما أفعل هذا لشيء، ولكني أرجو أن تكون أنت النبي الذي ستبعث، فإن تكن هو فأعرف حقي ومنزلتي وأدع الإله الذي يبعثك لي. قالت: فقال لها: واللّه لئن كنت أنا هو قد اصطنعت عندي ما لا أضيعه أبدًا، وإن يكن غيري فإن الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبدًا.

أنظروا إلى هذا القدر من الحب والاحترام المتبادل بين الزوجين، أمر يفوق كل رومانسيات العصر الحديث والأفلام والخيالات التي يمكن أن نراها على كل الشاشات، نحن هنا لا نسمع ولا نشاهد خيالاً ولا وهمًا، وإنما ما نسمعه من هذين الزوجين حقيقة ترويها لنا جارية في العهد الجاهلي عندما كانت المرأة ليس لها قيمة تذكر، هل يمكن أن نطلق على هذا حب ؟ وربما نحسب أن كلمات الحب والاحترام لا تسع ما كان بين هذين الزوجين الطاهرين، فهل سمعتم يومًا عن رجل يعلن حبه لزوجته في هذا الزمان الذي نعيشه فما بالنا في ذلك الزمان التي لم تكن المرأة فيه شيء يذكر، فقد روى مسلم قوله صلى اللّه عليه وسلم عن خديجة أنه قال: "أنى رزقت حُبها".

ولكن لا عجب في ذلك فهو صلى اللّه عليه وسلم القائل في روايات الترمذي "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي ..." وكذلك قال "خيركم خَيركم للنساء"، وكذلك قال " أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا".

وبالإضافة إلى كونه كان تاجرًا خارج البيت، فقد كان زوجًا في البيت، وأبًا لعياله وسكنت البيت الذي يعيش فيه فقد كان يقوم على حاجيات أهل البيت ويوفر متطلباتهم الشخصية واحتياجاتهم، وكذلك يقوم بخدمة نفسه فعن أحمد والترمذي أنه قيل لعائشة رضي اللّه عنها: ماذا كان يعمل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في بيته ؟ قالت: كان بشرًا من البشر، يفلي ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه". وفي مسند الإمام أحمد عن عروة عن أبيه، قال: سأل رجل عائشة هل كان النبي صلى اللّه عليه وسلم يعمل في بيته شيئًا، قالت: "نعم كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يخصف نعله ويخيط ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته"، صححه الأرناؤوط.

وغداً إن شاء اللّه نكمل رحلتنا مع المصطفى صلى اللّه عليه وسلم.